الفصول ، « قال برهان الدين : وخرج الإنكليزى وأنا معه فدخلنا ديواناً كبيراً فوجدنا الناس مجتمعين فيه من نساء ورجال ، منهم من يتعاطى الدخان ومنهم من يشرب القهوة وغير ذلك ، وكانت النساء مختلطة بالرجال ، البعض فى مسامرة والبعض فى تروض بالمشى ، فأحاط بنا أناس كثيرون ، فما من أحد إلا سأل عنى وعن بلدى وسبب مجيئى ونحو ذلك . ومن الغريب أن كثيراً من الحاضرين كان يسأل هذه الأسئلة بعد أن رأى غيره يسأل عنها وسمع جوابها ، فلا يكتفى بذلك حتى يكون بنفسه سائلاً ويسمع الجواب ثانياً » (٢٤) ، انظر إلى هذا الاهتمام بوصف الناس فى الاستراحة ؛ المدخنين والمتجولين والذين يشربون القهوة لتدرك دلالة توقفه عند هذه الأمور المألوفة والتى لم تكن عنده مألوفة ، وكأنه - فيما يبدو - لم يكن قد عرف المقاهى أو الجلسات الاجتماعية ، ثم سعادته والناس يسألونه عن نفسه وبلده، وهى الأسئلة المفترضة لغريب فى هيئته وسلوكه - فقد أصرَّ علم الدين وابنه على عدم خلع ملابسهما واستبدالها بملابس غربية بحجة أن ذلك يضطرهم إلى تغييرها كلما نزلوا بلداً . والمقصود أن ملابس الأوربيين متشابهة ، ولكنها علة تعلل بها ليحافظ على مظهره الخاص ، وأخيراً سعادته بتكرار السؤال عليه مع أن السائل عرف الإجابة من متحدث قبله ، لكنه التعطش للانتماء والتواصل والفرحة بخروجه إلى عالم أرقى . كما وصف صالة الجلوس وخشبة المسرح ولوحات المناظر كأنه يريد أن